مجلة أبوليوس
المجلد 08 العدد 01 – جانفي 2021
الصفحات: 159- 183

اللغة والثقافة والإدراك:
تأصيل العلاقة، مع الإشارة إلى بعض تجلّياتها وثمراتها

Language, Culture and Cognition: Establishing the Relationship with Reference to some of its Manifestations and Results

بهاء الدين محمد مزيد*
كلية الألسن، جامعة سوهاج /مصر.
feminiba@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2021/01/14 تاريخ القبول: 2021/01/27 تاريخ النشر: 2021/01/31

ملخص البحث:

هذه دراسة في نشأة اللغة وتطوّرها وتفرّعها إلى لغات ولهجات ولكنات، مع تطبيقات من اللغتين العربية والإنجليزية، وعلاقة اللغة بالثقافة، وعلاقتهما بالوعي والإدراك. اللغة في معناها الاصطلاحي الضيّق هي أداة الاتصال الأولى بين البشر، وهي الأصوات التي "يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"، بعبارة ابن جنّي في (الخصائص). وبمعناها الرحب، هي كلّ وسيلة اتصال بين البشر، قد تكون لفظيّة وقد تكون غير لفظيّة. والثقافة هي الوعاء الذي تنمو فيه اللغة ثم تحملها وتعبّر عنها. أمّا الوعي أو الإدراك فهو الذي يتوسّط بين اللغة والثقافة، بين النّصّ والعالم.

الكلمات المفتاحية: اللغة – الثقافة – الإدراك – الكتابة – الترجمة.

Abstract:

This article probes the origin and development of language, and its branching into dialects and accents using applications from two languages namely Arabic and English. Besides, it investigates the relationship between language and culture, and their connection with awareness and cognition. In its narrowest sense, language is the primary means of human communication. Ibn Jinni (932-1002 AD), in his book Al-KhaSaa'is, defines it as a set of sounds that members of a community use to communicate their needs and wants. In broad brush, language is every means of communication amongst humans be it – verbal or non-verbal. Culture is the container in which language grows then carries culture and expresses it. However, awareness or cognition mediates between language and culture and between the text and the world.

Keywords: *language – culture – cognition – writing – translation.*

* المؤلف المراسل

بذور وجذور
في البدء كانت الكلمة:

إنّ الفروع لا محالة راجعةٌ إلى أصولها، والأعجاز لاحقةٌ بصدورها، والموالي تبعٌ لأوليائها، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ومنفردة بالمضادَّة، وبعضها عِلَّةٌ لبعض، كالغيث علَّة السَّحاب والسَّحاب علَّة الماء والرُّطوبة، وكالحبّ عِلّته الزَّرع، والزَّرع علَّته الحبّ، والدَّجاجة علَّتها البيضة، والبيضة علَّتها الدجاجة، والإنسان علّته الإنسان. (الجاحظ: **الرسائل**، نسخة موقع الورّاق، ص 115)

كانت لغة البشر لغة واحدة لعلّنا لا نستطيع أن نجزم بكنهها ولا طبيعتها ولا حتّى اسمها. ولا ندري على وجه اليقين كيف نطق أول إنسان على وجه الأرض أولى كلماته، ربّما كان ذلك تقليدا لأصوات الطبيعة والحيوانات والطيور، فكانت الكلمات الأولى "حكايات أصوات"، أو تعابير صوتيّة عن انفعالات عاطفية، أو إيقاعات صاحبت المجهود العضلي والأعمال اليوميّة، أو محض حركات لسان تكرّرت حتى أصبح لها أصوات مسموعة. على أنّ الكتب المقدّسة تحسم المسألة حين تقرّر أنّ آدم تلقّى أول لغة من لدن خالقه عزّ وجل – "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ..." (البقرة، الآية 31). نستطيع أن نرى في اكتساب طفل لغته الأم مثلا يُقاس عليه ما حدث في بدء الخليقة، من صرخات، إلى كلمات قصيرة بسيطة ("بابا"، "دا دا"، "ماما")، إلى عبارات بدائية، ثم جمل. على كلّ حال، كانت لغة واحدة تكلّمها آدم عليه السلام، ولا بدّ أن حوّاء تكلّمت معه نفس اللغة. ولا ندري على وجه اليقين أيّ لغةٍ تكلم بها معهما الشيطان والحيّة.

في سفر (التكوين): "قال الربّ: انظر ها هم البشر جميعا شعب واحد، يتكلّمون لغة واحدة، ولا شيء يحول بينهم وبين ما يريدون وما يجنح إليه خيالهم. هيا – إذًا - فلننزل إليهم، ولنشتت ألسنتهم ولغاتهم، لكيلا يفهم بعضهم كلام بعض". هذه هي الحكاية الأولى: كان الطوفان واجتمع البشر وتوجّهوا شرقا يريدون أن يبنوا برجا يبلغ عنان السماء فلم يرض الربّ هذا التطاول، فمزّقهم في الأرض قبائل وشيعا. البرج المشار إليه هو برج بابل، ومن هنا كانت "البلبلة" أي الإرباك والتشتيت. نستطيع أن نجرّد القصّة من بعدها الخلافي ونقرأها على أنّها خطّة إلهية لعمارة الأرض ولحفز البشر على التعاون والتعارف - "يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير" (الحجرات، آية 13). لو عاش البشر إلى يومنا هذا في مكان واحد وتكلّموا لغة واحدة لخلت حياتهم من كثير مما عرفنا من الإنجازات والإبداعات وفنون التعليم والتعلّم والترجمة والتفاعل مع الثقافات واللغة المختلفة.

كيف يكون التعارف من باب الافتراق؟ لأنّ الاعتياد ينتهي إلى الألفة، ومع الألفة يكون كسل العقل وقلّة الاهتمام. ولعلّ في اختلاف ألسنة البشر وألوانهم آية – في سورة (الروم): "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (22)". الآية علامة، وكلّ علامة مشير ومشار إليه، دال ومدلول. المشير أو الدّال في الاقتباس من القرآن الكريم هو على الترتيب: الخلق من تراب، وانتشار البشر في الأرض، وخلق الأزواج، وما بينهما من مودّة ورحمة، وخلق السموات والأرض، واختلاف ألسنة البشر وألوانهم. أمّا المشار إليه فهو قدرة الخالق عزّ وجلّ وبديع صنعه وحكمة

تدبيره. لماذا كان اختلاف ألسنة البشر واختلاف ألوانهم من آيات الله؟ لقد انحدروا من أصل واحد من آدم وحواء، فمن أين جاء اختلاف الألوان واللغات واللهجات واللكنات؟ ألم يكن آدم وحواء يتكلّمان لغة واحدة؟ فكيف صارت اللغات إلى ما صارت إليه اليوم من كثرة وتنوّع وتباين ظاهر؟

"ثم إذا أنتم بشر تنتشرون"

تفرّق البشر – وهكذا يفعلون إلى قيام الساعة كما يشير شطر الآية القرآنية أعلاه من سورة الروم (20) - بعد ما كانوا يتكلّمون لغة واحدة ربّما تكون اللغة البابلية في بلاد الرافدين. وحيثما حلّوا في بيئات متباينة التضاريس والمناخات والموارد والكائنات المحيطة، تلوّنت مخارج حروفهم ونبراتهم ونغمات كلامهم بالبيئات المحيطة، وزادت أصوات هنا، وسقطت أصوات هناك، فكانت الفروق الصوتية التي تتفاقم كلما بعدت الشقّة بين مجتمعات البشر وتجمعّاتهم (ومن ذلك أنّ اهل الغة العربية في المغرب العربي إذا تكلّموا فيما بينهم لغة حياتهم اليوميّة لا يكاد يفهم ما يقولون عربيّ من أهل الشام).

وتباينت نشاطات البشر وانشغالاتهم من تجارة إلى زراعة إلى رعي إلى غير ذلك، ولا بدّ أن مفرداتهم وعباراتهم وأفعال كلامهم قد تباينت جرّاء ذلك، مع اشتراكهم في المفردات العابرة للجغرافيا والثقافة، ومع اختلافاتهم فيما يتصل بالخصوصيّات الثقافيّة وما يتصل بالبيئة المحيطة. ولابن خلدون كلام مهمّ في "اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من آثار في أبدان البشر وأخلاقهم" (تاريخ ابن خلدون، ص 48). ولمصطفى صادق الرافعي (1911) كلام بليغ في تفسير نشأة المفردات وتعبيرها عن البيئة التي تحيط بمن يبتدعونها، وعنده أنّ "الأصل في تشعّب اللغات تشعّب الجماعات" (ص 54):

وقد وجد علماء اللغات أيضا أنّ من أولئك من يعبّرون عن معنى الصلابة بلفظ "الحجر"، وعن معنى الاستدارة بلفظ "القمر"، وهكذا من المترادفات التي هي أصول طبيعيّة ثابتة لتلك المعاني المتفرّعة. وذكروا أنّ أهالي المكسيك لمّا رأوا السفينة أول مرّة سمّوها "بيت الماء"، وأنّ أهل ميسوري لم يكن عندهم غير الأدوات المتّخذة من الصوان، فلما جيء إليهم بالحديد والنحاس سمّوا الأول "حجرا أسود" والثاني "حجرا أحمر"، وأنّ بعض أهالي أمريكا لمّا رأوا الخيل أول مرّة ولم تكن في أرضهم اختلفوا في تسميتها، فبعضهم سمّى الجواد "الكلب المسحور"، وآخرون سمّوه "الخنزير الحامل للإنسان" ... (ص 52).

اللغة بنت الاجتماع:

وكأنّ الرافعي - وقد جاء فيما قال أنّ "اللغة بنت الاجتماع" (ص 54) - يتحدّث عن العرب المحدثين وهم يطلقون على السينما أول ما عرفوها "دار الخيّالة" وعلى الهاتف "المسرّة" وعلى "الدرّاجة" في أول عهد القرويين بها "الحمار الحديد"، وعلى جهاز الكمبيوتر "الحاسب الآلي" لسابق عهدهم بالحساب. وقد يختلف أهل لهجات اللغة الواحدة في تسمية نفس الاختراع كما حدث مع "الموبايل" الذي سمّاه بعض العرب "الهاتف الجوّال"، وغيرهم "الهاتف المحمول" أو "المتحرّك"، وسمّاه آخرون "الهاتف المصاحب"، وسمّاه عدد منهم "الخليوي" ربّما نسبة إلى عبارة *cellular phone*.

هكذا، تضطر الحاجةُ البشرَ إلى استيراد بضائع وأدوات من أماكن بعيدة لم يعرفوا لها أسماء فينحتوا لها أسماء بالقياس على ما يعرفون، أو

يستعيروا معها أسماءها وأوصافها وطرائق استعمالها (في قاموس اللغة الإنجليزية ما لا حصر له من المفردات المستعارة من كلّ لغات العالم تقريبا).

ولأنّ لغات البشر تتفق في المفردات الرئيسة، يصبح من الصعب أحيانا حسم أسبقية جماعة لغوية على غيرها في نحت كلمة أو استحداثها (هل "اللغة" كلمة عربية من "لغو"، أم هي تعريب "لوغوس" الإغريقية؟ وهل "قرن" بدأت عربية ثم سافرت إلى أوربا لتصبح horn أم حدث نقيض ذلك؟ وكذا "الفردوس" و paradise. في حالات كثيرة، يحسم ارتباط المفردة بحضارة أو ثقافة مسألة السبق، فالقطن المصري العربي سافر إلى الغرب ليصبح cotton وكذا فعلت مفردات "الجمل" camel و"الجبر" algebra و"اللوغاريتمات" algorithms.

ولا بدّ أنّ عوامل إنسانية لا طبيعية أخرى – منها معاداة الأجانب والرغبة في التميّز والتفرّد - كان لها أثر في اختلاف النطق والتنغيم من مكان إلى مكان. ولجرجي زيدان (1988) - بالإضافة إلى إسهابه في حصر الألفاظ المستعارة في اللغة العربية في مختلف العصور – طريقة تستند إلى المشابهة وإلى السبق في تحديد أصول المفردات، ويضرب لذلك مثلا كلمة "المسك" الموجودة في العربية والفارسيّة والسنسكريتية، وينتهي إلى أنّ أصلها من السنسكريتية، حيث حملها أهل الهند معهم إلى بلاد العرب (ص 19).

ولأنّ اللغة كائن حيّ، نستطيع في كلّ مراحل الكلام عن نشأة اللغات وتطوّرها أن نقيسها إلى العائلات والسلالات البشريّة، وتستعار الشجرة للتعبير عن العائلات البشرية والعائلات اللغويّة – جدّ أكبر ينجب أبناء وبنات يتزاوجون وينجبون حفدة تكبر العائلة وتتفرّع إلى عائلات تكبر بدورها وتتفرّع إلى عائلات. والأصل في تشعّب اللغات تشعّب الجماعات – كما يقول الرافعي (ص 54) – فالذي ينفق حياته في قريته الصغيرة لا يفارقها لا يلتحم بغيرها من الجماعات أغلب الظنّ أن لغته لن تتغيّر عن لغة سلفه. أمّا الذي يخرج منها بالسفر أو الاطّلاع على خبرات غيرها من المجتمعات فسوف تتسرّب إلى لغته مفردات جديدة وقد يلحق اللحن بلهجته ولنضرب لذلك مثلا بأهل صعيد مصر، من ينفق منهم حياته في قريته الصغيرة لا يبرحها، ومن يسافر منهم إلى العاصمة، ومن يسافر منهم إلى بلد عربي أو أجنبي. لا يستوون.

عائلات من اللغات:

استقرّ رأي الدارسين في علم اللغة التاريخي على ثلاث عائلات لغوية كبرى تتفرّع منها كلّ لغات العالم ولهجاته اليوم، هي:

(1) الأفروأسيوية أو الساميّة (ومنها العربيّة)
(2) الهندوأوربية أو الآريّة (ومنها الإنجليزية)
(3) السينوتبتيّة (ومنها الصينية).

تتجمّع اللغات في أغصان قريبة فتكثر وجوه التشابه فيما بينها (العربيّة والفارسيّة، والإسبانيّة والإيطالية، مثلا). وقد تبتعد حتى لا يُرى أصلها المشترك (الإنجليزية والهندية على سبيل المثل):

شكل (1): شجرة اللغات الهندوأوروبيّة

https://www.theguardian.com/education/gallery/2015/jan/23/a-language-family-tree-in-pictures

قد تظهر عائلات اللغات في صورة شجرة مقلوبة، جذرها اللغة الأمّ، وفروعها اللغات واللهجات التي خرجت منها كما نجد في المخطط أدناه وفيه شجرة اللغات الساميّة - نسبة إلى سام بن نوح.

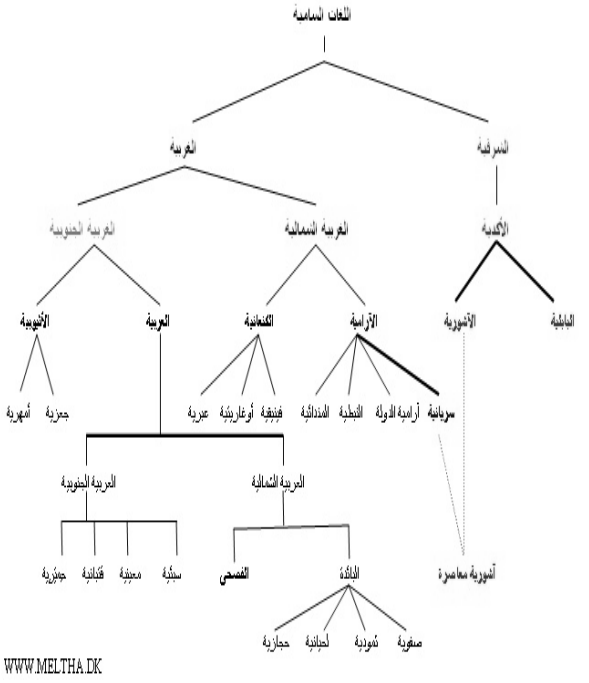

شكل (2): شجرة اللغات الساميّة

اللغة العربيّة:

تنتمي اللغة العربية إلى اللغات الساميّة (شكل 2)، ثمّ إلى فرعها الغربي، وعلى وجه التحديد الغربي الجنوبي. من ذلك الفرع كانت العربيّة الجنوبيّة والعربيّة الشماليّة. ومن اللهجات العربيّة الشماليّة كانت لهجات بادت هي الحجازيّة والصفوية والثموديّة واللحيانيّة وكانت لهجة قريش التي تطوّرت إلى اللغة العربيّة الفصحى.

كلّ شجرة لغات كبيرة بدأت بلهجة، صارت -بالتقعيد واستخدام الطبقة المهيمنة والانتشار والأسباب الاقتصادية- لغة، تفرّعت عنها لهجات، كبرت فصارت لغات، تفرّعت عنها لهجات. وهلمّ على هذا الجرّ. حدث هذا مع لهجة قبيلة قريش التي كُتبت المعلقّات، فأصبحت لغة الأدب الرسمي في ذلك الوقت، وكان لقريش مكانة سياسيّة بموقعها حول بيت الله الحرام وأهميّة اقتصادية لوجودها على طريق رحلتي الشتاء والصيف. وكان أهل قريش يسمعون لغات القبائل الوافدة ويأخذون ما استحسنوه منها ويقيسون عليه. وكان من ثمرات ذلك أن لانت طباعهم وانكسرت صلابتهم و"ارتقت لغتهم عن كثير من مُستبشع اللغات ومستقبحها" (الرافعي، 1911، ص 78).

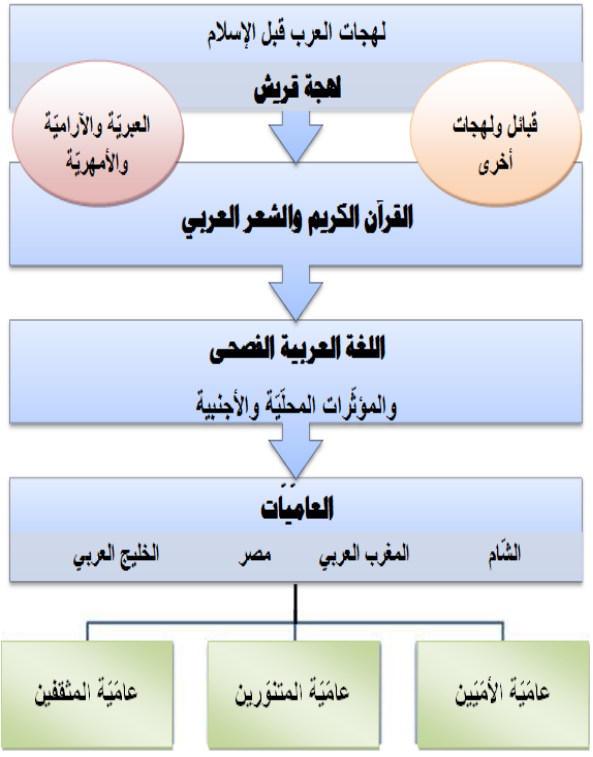

شكل (3): تاريخ اللغة العربية وتطوّرها

كبرت لهجة قريش – "القبيلة الأخيرة في تاريخ الفصاحة" (الرافعي، 1911، ص 78) - حتّى صارت اللغة الرسميّة لقبائل الجزيرة العربيّة. ونزل القرآن فانتشرت في كلّ البلدان التي دخلها الإسلام، وكان عمر بن الخطاب يكره "العجمة" في لسان من يدخلون الإسلام (تاريخ ابن خلدون، ص 191). ثم تفرّعت في كلّ بلد منها إلى لهجات (شكل 3) والتصنيف الأخير للعاميّات من كتاب السعيد بدوي، 1973، الذي يحدّد فيه خمسة مستويات للغة العربية في مصر هي فصحى التراث وفصحى العصر وعامّيّة المُثقّفين وعامّيّة المتنوّرين وعامّيّة الأمّيين). فصحى التراث هي لغة القرآن والتراث الأدبي الجاهلي وتراث الإسلام قبل أن ينفرط عقد الخلافة. أمّا فصحى العصر فهي اللغة التي نسمعها في نشرات الأخبار، ونجدها في الرسائل العلمية والمحاضرات، وفي لغة المكاتبات الرسميّة، وما إلى ذلك.

واحتفظ عدد من المجتمعات العربية بلهجاته الأصلية التي كانت قبل الفتح الإسلامي. واصطبغت اللغة العربية في الاستعمال اليومي بلكنة تلك المجتمعات وخصوصياتها الثقافيّة فصارت "هكذا" "كده" و"كدهو" و"كدهون" و"هيك" و"هكّه"، وصارت "رجل" "راجل" و"ريّال" و"زول" و"زلمة". وفي البلد الواحد تفرّعت اللغة إلى لهجات ولكنات.

"ومثل هذا يقال عن لهجة الكلام المحليّة، فإنّ شعوب العروبة تتكلّم لهجات من العربيّة، وهذه اللهجات تكوّنت على طول أحقاب تاريخيّة من طريقة النّاس بالنّطق بالألفاظ، فهناك في بلاد العروبة شعوب كانت تنبر المقطع الأول في لغاتها قبل الفتح العربي، ومنها ما ينبر المقطع قبل الأخير، ومنها ما لا ينبر أيّ مقطع فكان نطقه العربية على هذا الأساس. وفي كلّ بلد دخلت العربيّة الجارية على الألسن عبارات محليّة قديمة، وأخرى حديثة. ومن الشعوب ما هو قليل الكلام بطبعه فلا تلين الألفاظ في منطقه، ومنها ما يكثر الكلام ويسرع فيه فتلين الألفاظ في النطق. وعلى الجملة فإنّ البدو أقلّ كلاما من الحضر، لأنّهم معظم الوقت متفرقون في البوادي مع قطعانهم، والقرويون أكثر كلاما من أهل المدن لأنّ الكلام هو أكثر وسائل التسرية عن النفس عندهم. في حين أنّ الحضر أكثر كلاما لاجتماع بعضهم ببعض، فتجمُد اللغة ويبطؤ تطوّرها على لسان البدو، وتلين وتسهل وتتطوّر على ألسنة الحضر. ولهذه الأسباب تنشأ اللهجات من نفس اللغة، وتتسع الهوّة بينها على الزمن، وكلّ لهجة صورة من طبيعة أهلها وأثر من بيئتهم وصورة تفكيرهم والمعاني التي تدور في أذهانهم، فهي على هذا مظهر ثقافتهم، أي أسلوبهم في الحياة" (مؤنس، 1998، ص ص 375-376)

حدثت تطوّرات قريبة الشبه من ذلك مع اللغة اللاتينيّة في غرب أوروبا، ومع اللغة الجرمانيّة في شمالها. من اللغات الجرمانيّة جاءت لغة الأنجلو ساكسون Anglo-Saxons التي جاءت منها اللغة الإنجليزية. بقيت آثارٌ من اللهجات التي سبقت الغزو الجرماني، لكنّ الأمور دانت للغزاة الأقوياء، وللهجة العاصمة لندن على حساب غيرها. مرّت اللغة الجديدة بمراحل من التطوّر تحت تأثير الغزو النورماندي Norman، ومن قبله غزو الڤايكينجز Vikings ولغتهم الدنمركيّة، وتأثير اللغة اللاتينيّة، ثم توسّعت الإمبراطوريّة البريطانيّة في شرق العالم وغربه وجنوبه، فكانت لهجات من اللغة الإنجليزيّة في مختلف أجزاء بريطانيا، وفي الهند وأستراليا ونيوزيلندة وجنوب أفريقا، وكندا والولايات المتّحدة الأمريكية.

وعلى فترات تتباعد أو تتقارب تتذكّر المجتمعات الصغيرة لهجاتها الأصلية، وتجتهد في العودة إليها ورفض اللغة الرسمية المفروضة عليها. قد تحسن الإشارة هنا إلى مصطلحي **اللُغيّات واللثغات** بديلا للهجات واللكنات على الترتيب كما ورد في مقالة رزوق عيسى (1911، ص 14):

إذا أردت أن تقف على منافع تدوين اللغة... اعتبر هذا الأمر، وهو أنّك إذا أنعمت النظر في الماء عند منبعه ثم تفقّدته في مجراه تتحقّق أنّه كلما ابتعد عن العين زادت كدورته أو زادت الجواهر الغريبة التي تخالطه لكثرة ما يصادفه من الأجسام عند هبوطه من مصدره. وإذا انتهيت إلى مندفعه لا تكاد تجسر على أن تقطع بأنّ هذا الماء من ذاك المعين. وعلى مثل هذا نقيس مجرى اللغات ومسراها وامتزاجها وكثرة ما يحل بها من الغير.

ما زالت آثار "اللغة البشريّة الواحدة" تنتشر هنا وهناك، وقد تلوّنت بلكنات مستخدميها وطرائق كتابتهم، تحتفظ بكثير من ملامحها الأصلية في اللغات واللهجات القريبة جغرافيّا، وتنزوي تلك الملامح في اللهجات واللغات التي تفصلها مسافات كبيرة وتضاريس. من ذلك ما نجد من تنويعات على مفردتي burg و borough في أسماء المدن، ومفردات "الأبّ" و"الأمّ"، و"العمّ" و"الخال" (uncle, onkel, oncle, eno, amka)، مع اختلافات ثقافيّة جوهريّة بين اللغتين العربيّة والإنجليزيّة، و"الأخ" (brother, brat, bratr, bruder, storebror) و"الأخت"، والأرقام، ومنها two, due, dy, dva, to, twee, deux, dous, dha, du، وأيّام الأسبوع، وشهور السنة، على سبيل التمثيل لا الحصر، في اللغات الهند-أوروبية. وكذا المفردات الأساسية ومنها مقابلات الحليب أو اللبن في هذه اللغات milk, lactem, leite, leche, latte, lapte, lait. ومن ذلك ما نجد في بلد واحد تتنوّع فيه اللكنات واللهجات من أسماء أماكن كما في مصر مثلا – "ميت" و"كفر" و"نجع" و"نزلة" و"عزبة"، وبين لهجات اللغة العربية من تشابهات في المفردات الأساسية الدارجة. وهذا مثل من كتاب الرافعي (1911، ص 68) لتشابه الضمائر في ثلاث لغات ساميّة:

العربية	العبرانية	السريانية
أنا	أني	أنا
أنت	ات	أنتي
هو	هوا	هو
هي	هيا	هي
نحن	أنحنو	حنن
أنتم	اتم	أنتون

أنتن	أتن	أنتين
هم	هِم	هنون
هُنّ	هِن	هنين

وسوف نجد في كلّ بلد عربي كلّ المستويات التي تظهر في شكل (3) أعلاه، من لغة القرآن والأدب العربي القديم، إلى لغة فصحى فيها كثير من التبسيط والتحديث، إلى لهجات تجتمع فيها آثار العربية الفصحى، وآثار اللهجات المحلّيّة، وآثار اللغات الوافدة، وآثار اللغات التي يتفاعل معها أهل البلاد العربيّة بالسفر والتجارة وغير ذلك.

اللّغة والثّقافة:

Where grows?—
where grows it not?
If vain our toil,
We ought to blame the culture,
not the soil.
(Alexander Pope: An Essay on Man, Epistle IV)

تزرع ثَمّ هنا، أو ثَمّ هناك،
إنْ يفسد زرعُك لا تعتبْ -
إن شئتَ - على التُربة،
بل عاتب مَنْ زَرَعَ،
ولم يَهتمّ.

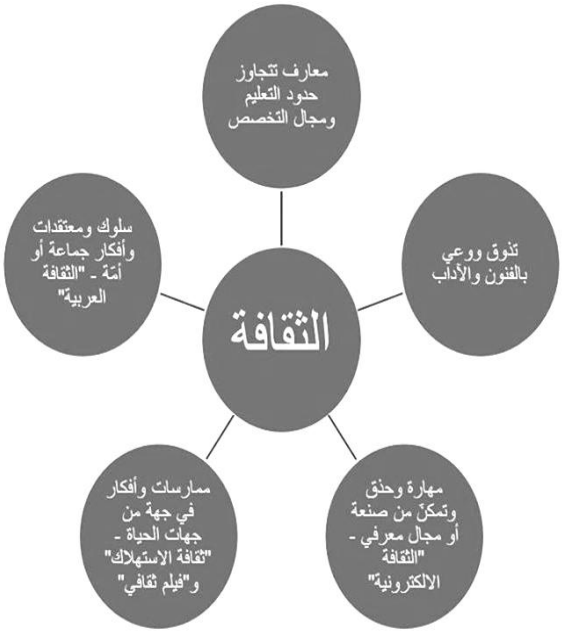

شكل (4): ما الثقافة؟

أثر متبادل:

لكلمة "الثقافة" في اللغة العربية - - وهي من "ثقف" - دلالات تدور حول التهذيب والإحاطة والإلمام، وهي تشير في اللغات الغربيّة إلى تنمية المعارف والسلوكيّات ومن الطريف أنّها جزء لا يتجزّأ من كلمة "الزراعة" agriculture وأصلها agrum وتعني الأرض أو المزرعة أو الحقل، و culture وتعني الإنبات أو الزّرع. وعلى سبيل الإيجاز تشير الثقافة إلى الأفكار والمعتقدات والسلوكيّات. وهي في هذا تبتعد عن الحضارة التي تعني التطوّر المادّي العمراني.

وقد وردت فيما سبق إشارة إلى بعض أثر البيئة والثقافة في اللغة، على أنّ بعض المفكّرين يرون التأثير في الاتّجاه المضادّ، فيرون أنّ حدود عالم المتكلّم ترسمها لغته. يرى إدوارد سابير وبنيامين لي ويرف Sapir and Whorf أنّ كلّ لغةٍ تعكس رؤيةً مُحدّدة خاصّة بها دون غيرها للعالم، وتنظِّم لغةُ أيّ مجتمعٍ ثقافته الخاصّة به، أيّ أنّها تنظّم إدراك

أفراد هذا المجتمع الواقع وكيف يتصوّرون العالم. وتنتهي الفروق بين لغتين إلى نمطين مختلفين من السمات الفكريّة والانفعاليّة على حدٍّ سواء. في كلام سابير وورف كثير من الحقيقة، فكلّ نظام علامات لغويّة أو غير لغويّة يفرض على مستعمليه تقسيماً خاصاً به، وفئاتٍ ترتبط فيما بينها في شبكاتٍ متعددة المستويات من العلاقات – من مستوى الأصوات إلى الحروف ثمّ المفردات، ثمّ العبارات، فالجمل، فالنّصوص.

يقول سابير إنّ "اللغة هي الدليل على الواقع الاجتماعي والمرشد إليه، وهي التي تشكّل إلى حدّ كبير وعينا بالمشكلات والعمليات الاجتماعية، فالبشر لا يعيشون في العالم المادّي فحسب، ولا في عالم الممارسات والنشاطات الاجتماعية كما شاع فهمها، بل يعيشون تحت رحمة اللغة التي اختار مجتمعهم أن تكون أداة التواصل بين أفراده. ومن قبيل الوهم المحض أن نتصوّر أن امرأ يمكن أن يتكيّف مع الواقع الذي يحيط به من غير استعمال اللغة". "ليس هناك لغتان متطابقتان إلى الحدّ الذي يسمح بتصوّر أنّهما تعكسان نفس الوقت الاجتماعي، فالطريقة التي نرى بها ونسمع ونختبر الموجودات هي نتاج ما ألفه المجتمع من ميول في التفسير والإدراك". (سابير Sapir، 1929، ص 209).

هذه الحتميّة اللغوية نقلها بعض التربويين، وفي مقدّمتهم بيرنشتاين (1971)، إلى تفسير الفروق في التحصيل الدراسي بين مختلف المتعلّمين، فقد أشار بيرنشتاين إلى أنّ أبناء الطبقات العاملة الفقيرة مخزونهم من اللغة وطرائق التعبير محدود مقيّد بسيط، بينما أبناء الطبقات الوسطى مخزونهم من اللغة وطرائق التعبير أكثر ثراء ورحابة ومرونة وتعقيدا، بما ينتهي بالمتعلّمين من النوع الأول إلى تحصيل دراسي منخفض، وبالمتعلّمين من النوع الثاني إلى تحصيل دراسي مرتفع.

الوجه الآخر من العلاقة بين اللغة والثقافة أكثر شيوعا وقبولًا وهو أقرب إلى المنطق البسيط من تلك "الحتميّة اللغويّة" التي روّج لها سابير وورف. هل ظهرت مفردات الثلج والجليد في الإسكيمو قبل أن تنشأ الظواهر الطبيعية التي تشير إليها هذه المفردات؟ وهل سبقت مفردات اللغة العربية التي تشير إلى السيف والجمل والأسد استعمال العرب السيف وتعاملاتهم مع الجمل والأسد" أم حدث العكس؟ إلى هذا المعسكر الذي يرى أسبقية الثقافة على اللغة ينتمي روبيرت كابلان – واحد من روّاد دراسات البلاغة المقارنة في الغرب – الذي يشير إلى أنّ اللغة الإنجليزية وطرائق تعبيرها تطوّرت من الثقافة الأنجلو ساكسونية. ثم يتناول طرائق التعبير في الثقافات المختلفة فيرى مثلا أنّ التعبير في اللغات الشرقيّة العربية "دائري"، فيه لفّ ودوران، بينما التعبير في اللغة الإنجليزية مباشر مستقيم (1966، ص 11).

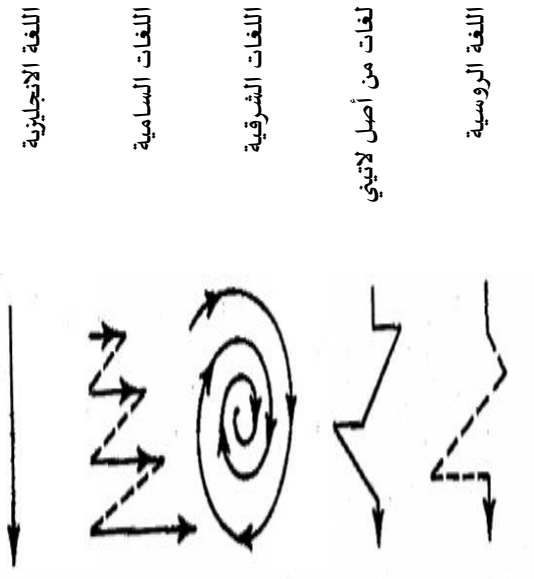

شكل (5) طرائق التعبير بالكتابة في اللغات المختلفة

حتّى هذا التصوّر ناله ما ناله من نقد وتفنيد، فليس كل منتم إلى اللغة الإنجليزية أو غيرها يكتب بهذه الطريقة في كلّ الظروف والملابسات. ولعلّ من الصواب أن نرى العلاقة بين اللغة والثقافة علاقة تبادلية، والتأثير فيها يقع في الاتّجاهين، لا في اتّجاه واحد، تحكمه عوامل السياق، ومن بينها الوظيفة التواصلية والغرض البلاغي.

وحدة وتطوّر وتنوّع:

مع الإقرار بالعموميّات اللغويّة والأصول المشتركة للغات البشر جميعا، لا بدّ من الوقوف عند مسألة التطوّر الدلالي وأثر الثقافة والبيئة على المفردات. تتغيّر دلالات المفردة الواحدة من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى مكان. يحدث هذا في كلّ لغات البشر فتصير مفردة knight من "خادم" إلى "فارس"، وتصير مفردة knave من "ولد" إلى "نذل"، وينتهي الحال بالصفة البريئة gay إلى الدلالة على المثليّين (الشواذ – ومفردة "شاذ" نفسها في العربية قد تحتمل معنى لغويًّا محايدًا، فتعني استثناء من قاعدة مثلا، وقد تحتمل تصنيفًا وإقصاء)، وتصير "الأوباش" التي كانت تعني "الأخلاط من النّاس" إلى معنى "السفلة من النّاس" وتتغيّر أحوال "أبلة" فتارة تعني الأخت الكبرى، وتارة تعني المُدرِّسة، وتارة تعني الراقصة الكبيرة بين الناشئات من "العوالم" المحيطين بها. ولعلّ تقلبات مشابهة وقعت لمفردات منها "بيه" و"باشا" و"أغا" فأنزلتها من عليائها. وقد كانت مفردة girl في الإنجليزية الوسطى تشير إلى الجنسين، فضاقت دلالتها مع الأيام لتقتصر على معنى "بنت" أو "صبيّة". ونال مفردتي sensitive و meticulous كثير من التهذيب والتجميل، بعد أن كانت الأولى تعني "حواسّه سليمة"، لا أكثر ولا أقلّ، والثانية "جبان خوّاف" فأصبحت الأولى تعني "حسّاس"، "مُرهف الحسّ"، والثانية "دقيق". قد يقع خلاف ذلك كما حدث لمفردة silly التي كانت تعني يوما ما "بريء" "ومبارك" ("بركة" بلغة أهل مصر) فأصبحت تعني ما تعنيه اليوم في اللغة الإنجليزية.

يقع هذا التباين في الزمن الواحد من مكان إلى مكان فمفردة "العافية" في مصر تعني "الصحّة" و"القوّة" وقد تعني من باب التلطّف "المرض"، لكنّها في المغرب تعني "النّار". و"العيش" في مصر هو "الخبز" في الخليج العربي، و"يرسل" المصريّة هي "يطرّش" و"يدِز" الإماراتيّة، و"يقفل" و"يسكّ" هنا هي "يسكّر" و"يبنّد" هناك. وشتّان ما بين معنى "شيخة" في الخليج العربي ومعناها في المغرب العربي! وما بين "ناصح" المصريّة و"ناصح" الشاميّة، و"المبسوط" في العراق و"المبسوط" في مصر، وكلمة "شكشوكة" بين أهل مصر وبين أهل السودان. وشتان بين دلالات كلمة artiste حين استعارها العرب من الغرب وبين ما آلت إليه في الثقافة العربية.

هكذا كان تفرّق اللغات من برج بابل إلى لغات ولهجات – أو لُغيّات - ولَكَنات – أو لَثغات - شتّى لا حصر لها . تزداد الصورة تعقيدا عندما تضاف إلى كلّ ذلك ما يلي:

– لهجات اجتماعية socio-lect تُستماز بها كلّ طبقة من طبقات المجتمع، ومن ذلك لغة الطبقة الأرستقراطيّة في مصر قبل ثورة 1952.

– لهجات نوعيّة gender-lect وفروق جوهرية في استعمال اللغة بين الجنسين، يُستماز بها الرجال من النّساء، من الصوت، إلى التنغيم، إلى اختيار المفردات، وصيغ الجمل، إلى غير ذلك.

– فروق لغوية أسبابها عرقية ethno-lects، ومن ذلك لهجات الهنود والأسبان والأفارقة في الولايات

المتّحدة الأمريكيّة، ولهجات أهل النوبة وأهل سيناء والواحات في مصر.

– أساليب شخصيّة مُنفردة في استعمال اللغة idio-lects تميز كلّ إنسان ممن سواه - لكنة تخصّ فردًا ولا يُحسنها غيره.

– مستويات لغوية وضروب استعمالات لغويّة registers تتباين من سياق إلى سياق، ومن ذلك كلام النّاس في دور العبادة وفي المدارس والجامعات.

– مستويات لغوية تتباين من عصر إلى عصر (معظم اللغات الحديثة مرّت بمرحلتين على الأقل قبل أن يكتمل نضجها، لغة قديمة ولغة وسطى، ومن ذلك إنجليزية قصيدة بيوولف إلى إنجليزية تشوسر إلى إنجليزية شكسبير)

– تباينات لغويّة من وظيفة تواصليّة إلى أخرى أو مجال إلى سواه (كما نجد في اللغة العربية اليوم من فصحى التراث إلى فصحى العصر إلى العاميّات، ولكل بلد عربي عاميّاته).

– لهجات ولكنات "سفليّة" هامشيّة anti-language, argot بعضها سرّيّ لا يفهمه إلّا أصحابه، وأخرى مهنيّة يتقنها أهل كلّ حرفة وكلّ مهنة أو صناعة، ومنها "السّيم" الذي لا تحسنه إلّا جماعة تتوافق عليه.

– تهجينات بين اللغات واللهجات، خصوصا في الأماكن الحدوديّة وأماكن التعاملات التجاريّة، فتكون لهجات هجين استعمالها مؤقّت محدود pidgin.

– قد تستقر اللهجة الهجين وتنتقل من جيل إلى جيل فتكون لغات هجين creole تجتمع فيها مفردات وتراكيب وأساليب من لغات شتّى.

– قد تنمو محاولة التهجين وتكبر لتصير مشروعًا إنسانيًّا، كما هو الحال مع اللغة العالميّة، لغة الإسبيرانتو Esperanto.

ثمّ كانت الكتابة: وغيرها من مستجدّات

عندما بدأ البشر في تدوين أحداث حياتهم على جدران الكهوف والمعابد، استعملوا ما سنح لهم من أدوات، فكانت الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين، وكانت الكتابة الهيروغليفية في مصر القديمة، وكان غيرهما في الصين. ثمّ اتّخذت تلك التدوينات سبلها وتطوّرت في اتجاهات شتّى فكانت الكتابة الألفبائيّة، والأبجديّة، والكتابة التصويريّة، والكتابة المقطعيّة التي نعرفها اليوم (ومع كلّ ما يمتلكون من حروف كتابة، لم يفارق البشر استخدام الصور والرموز البصريّة للتعبير).

وعلى وجه العموم، تطوّرت الكتابة من التجسيد إلى التجريد: من صورة تقوم مقام كائن pictograph، إلى صورة تقوم مقام كائن وأفكار ذات صلة به ideograph، إلى رمز يشير إلى كائن او فكرة، ثمّ إلى حروف تتكوّن منها كلمات تشير إلى كائنات وموجودا وأفكار.

من **أول اسم** علّمه الله تعالى آدم عليه السلام، إلى **أول نقش** على جدران كهف أو على صخرة، إلى **الكتابة بالصّور** على جدران المعابد وأوراق البردي في مصر القديمة

، إلى **مسامير سومريّة** إلى رسوم رمزية 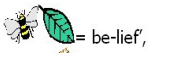

ثمّ **مقاطع وحروف**، إلى أول **كتابة يدويّة وأول مخطوط** manuscript، ثمّ أول **كتابة على آلة كاتبة** typewriter.

ثمّ أول **معالجة للكلمات** word processing على جهاز حاسب آلي computer. (وقد كان لمعالجة

الكلمات آثار كبيرة بعيدة المدى في تشكيل الكتابة على الصفحة أو على الشاشة من تحكّم في الخطوط، أحجامها وأنواعها وألوانها، إلى التحكّم في إخراج الصفحة وهيئتها الطباعيّة ثم استعمال الصور.

قد يُقال إنّ رقمنة الكتابة حرمت البشريّة من إبداعاتها اليدويّة في الكتابة، وقد فعلت، لكنّ المستجدّات من برامج الكتابة والرسم والمسح الضوئي رأبت هذا الصدع وسدّت هذه الفجوة.

ثمّ كانت القفزة الهائلة بربط أجهزة الكمبيوتر في **شبكة واحدة** هي الشبكة العنكبوتية أو شبكة الإنترنت WWW (world-wide web) التي تستخدم لغةً لوسم الوثائق والنصوص والبيانات هي hypertext markup language أو html، ولكلّ وثيقة أو نصّ عنوان يستدلّ به عليه من أي موقع وهو ما يُطلق عليه uniform resource locator أو URL. وهناك قواعد تحكم انتقال نصّ من موقع إلى موقع hypertext transfer protocol أو http. ثمّ كان انتقال مفهوم النصّ اللاحق hypertext والنصّ السابق hypotext من مقولات جيرار جينيت عن التّناص التقليدي (نصّ جديد يقتبس نصّا سابقا أو يحيل إليه بطرائق شتّى سوف يرد بيانها فيما بعد) إلى آفاق جديدة مع ڤانيڤار بوش Bush و**آلة الميميكس** memex، ثم برنامج إنتاج الحكايات – أو **مغزل الحكايات** Tale-spin – الذي ابتكره جيمز ميهان Meehan، وما لا حصر له من **ألعاب الكمبيوتر** والمغامرات الرقميّة (وفيها متاهات ومخاطر وطرق محتملة وخيارات وخصوم متربّصون وحرس من بشر أو غير ذلك من كائنات طبيعية أو أسطوريّة أو خرافيّة، وقرارات لا بدّ من أن يتخذها اللاعب، وأفعال لا بد له من أن يأتيها أو يؤدّيها وهو ينتقل من مستو إلى غيره ومن مرحلة إلى مرحلة في طريقه إلى الكنز أو التتويج أو القضاء على الأشرار وإنقاذ شخص أو مدينة).

ثمّ جاء تيد نيلسون Nelson والبرنامج الذي استحدثه وهو برنامج أو **نظام زانادوا** xanadu وكان يريد له أن يصبح رابطًا بين أجهزة الكمبيوتر والبيانات والنصوص والمعلومات يربطها ويتيحها للجميع. وهو يصف النصّ الارتباطي hypertext بالكتابة غير الخطّية non-sequential، تلك الكتابة التي تمنح المستخدم خيارات وفرص تفاعل، ويؤكّد على السمة التي تميز النصوص الارتباطية وهي انّها تسير في خطوط شتّى multilinear لا في خطّ واحد، إلى مفهوم آرسيث Aarseth عن النّص الموجّه أو المهيمن cybertext (والذي يكتفي بعض النّقاد العرب بترجمته إلى "السيبر-نص"، وهو مفهوم أكثر اتساعا وشمولا من مفهوم النّص الارتباطي).

ومن **أول هاتف أرضي** telephone (مسّرة، من "الإسرار"، لا من "السرور")، إلى أول هاتف محمول mobile ("موبايل"، أو "نقّال"، أو "خليوي") ثم هاتف محمول ذكيّ smart، ومن **المذياع** radio - وبعده أشرطة تسجيل الصوت audio cassette tapes 0 إلى السينما cinema ("دار الخيالة") والتلفاز television (الإذاعة المنظورة/ المرئية) - وتبعتهما أشرطة تسجيل الصوت والصورة video cassette tapes من طراز VHS أي video home service - فجهاز الكمبيوتر الذي يتجاوز عمليات الكتابة والحساب، ومن **التخزين** storage على أرفف المكتبات، ثم في أقراص discs ("ديسكات")، فاسطوانات مدمجة (CDs "سي ديهات") وذاكرات رقمية محمولة – فلاشات flash memories - إلى التخزين السحابي المحمول على الأثير، ومن **رسالة مع رسول**، ثمّ مع حمام زاجل، ثم مع ساعي بريد، ثمّ في تلغراف ("برق" و"براق" telegraph) أو بالفاكس fax ("الناسوخ") ثم بالبريد

الإلكتروني، إلى الرسائل مع مرسال البريد الإلكتروني messenger، ثم الرسائل القصيرة SMS – short message service -على الهاتف المحمول ومواقع التواصل الاجتماعي social networking sites – SNS - وما استجد بعدها ومعها.

ومن **حكايات تتناثر على الألسنة** هنا وهناك، قد تجتمع في حكايات أكبر وسير وملاحم، وتُروى في مناسبات ومقامات، إلى تدوين الحكايات على الورق ونقلها من بيئة إلى بيئة، ثمّ تمثيلها وعرضها بالصوت وحده، ثمّ بالصوت والصورة والحركة وما ينتج عن اجتماعها، ثمّ تخزين الحكايات وإعادة عرضها، ثم رقمنة كلّ ما سبق وبثّه إلكترونيًا – لحظات فارقة في تاريخ البشريّة، تغيّرت معها طرائق إنتاج المعرفة وبثّها وتناقلها وتخزينها ودراستها، وتغيّرت معها أساليب التواصل وهيئات الاجتماع.

ولا بدّ من أنّ أول عهد البشر بكلّ من هذه المستحدثات والاختراعات كان حدثًا دراميّا، أوله **السحر والغموض والفتنة والارتباك**، ومع السحر يكون **الخوف والتخويف** مما يحمل كلّ اختراع جديد من مخاطر وتهديدات. في (محاورة **فيدروس**) لأفلاطون جدال في مصر الفرعونيّة بين الملك "تاموز" Thamus وصاحب الابتكارات والاختراعات وسيّد الفنون تحوت Theuth يرى فيه الملك أنّ من يخترع شيئا جديدا لا يكون بالضرورة أقدر النّاس على تقييم منافعه ومضارّه، ويعتقد كذلك أنّ اختراع الكتابة سينجم عنه ضعف ذاكرة البشر لأنّهم سوف يعتمدون على حفظ المعارف والحكايات والمعلومات بالكتابة، لا بالتذكّر (وفي كلام الملك كثير من الحقيقة)، ثمّ **الاعتياد والألفة والتمكّن** من الاستعمال والتوجيه واليقين أنّ كلّ اختراع جديد "سلاح ذو حدّين"، ثمّ **الانزواء إلى الهامش مع ظهور اختراع جديد**.

من يسمع الإذاعة اليوم؟ ومن يستعمل الهاتف الثابت الأرضي؟ بل من يستعمل في تخزين معلومات والبيانات والوثائق أقراصا أو ديسكات، ومن يذهب إلى "دار الخيالة" اليوم؟

في شكل (6) تصوّر لتطوّر طرائق التعبير والتواصل البشري من الشفهيّة إلى الرقمنة. قريب من هذا التصوّر تصوّر حمداوي (2016) تاريخ البشرية من الأسطورة إلى اللاهوت وما بعد ذلك.

شكل (6): تطوّر طرائق التعبير والتواصل البشري

ضرورة الترجمة:

يقع اختلاف لغات البشر – إذًا - على محورين: محور جغرافي مكاني سياقي، ومحور تاريخي - تنوّع وتطوّر. لكنّ حاجة البشر إلى التواصل سنّة كونيّة، وحاجة حياتيّة، وضرورة جماليّة إنسانيّة. والطريق إلى هذا التواصل لا يكون إلّا بالتعلّم أو الترجمة. ليس في مقدور كلّ إنسان أن يتعلّم كلّ لغة يحتاج إليها، لأسباب تتعلّق بتلك اللغة، أو بمن يريد أن يتعلّمها، أو بالظروف والملابسات التي تتعلّق بتعلّمها، أو بكل ما سبق. من هنا كانت الترجمة ضرورة حياة وسبب من أسباب البقاء والتطوّر البشري. وهل مرّت الحضارة الفرعونية إلى بلاد اليونان والرومان، ومن بلاد اليونان والرومان إلى الدولة الإسلامية، ومن الدولة الإسلامية إلى أوروبا إلّا على جسور الترجمة؟

في سفر التكوين (42: 23) تكلّم يوسف وهو عزيز مصر – بعد أن بعدت الشقّة بينه وبين لغة أهله في كنعان - مع إخوته الذين قدموا إلى مصر وتصوّروا أنّه لم يكن يفهمهم، لكنّه فهم عبر وسيط "ميليتز" كان يقوم بالترجمة بين المتكلّمين. في الترجمات من العبرية إلى الآرامية حلّت كلمة "ميترجومان" – وأصلها آشوري معناه "من ييسّر التواصل" - محلّ كلمة "ميليتز"، وانتقلت الكلمة الجديدة إلى مختلف اللغات ومنها كانت كلمات "ترجمة" و"مترجم" و"ترجمان" وهي تعريب dragoman.

يشير بيرنارد لويس (2004) كذلك إلى أنّ الرومان اضطروا إلى الترجمة للتواصل مع أهل بلاد القوقاز، ويذكر كليوباترا ملكة مصر وقدراتها اللغوية الاستثنائية. ويشير إلى ما يعرفه كلّ من طالع السيرة النبويّة من إرسال محمّد صلى الله عليه وسلم رسله إلى الملوك والقياصرة. ولا بدّ أنّه اختار من يحسنون الكلام بلسان من ذهبوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام. وقد ترجم سلمان الفارسي سورة الفاتحة إلى لغته الأصليّة، وترجم جعفر بن أبي طالب آيات يرد فيها

ذكر عيسى ومريم عليهما السلام إلى لغة أهل الحبشة استعدادا للقاء ملكهم النجاشي.

الترجمة والعموميّات اللغويّة:

ليس هذا مقام الكلام عن تاريخ الترجمة، لكنّه مقام إشارة إلى فكرة العموميات اللغوية وأثرها في الترجمة، وكذا مقام إشارة عابرة إلى العلاقة بين الترجمة والثقافة. أول ما يخطر على البال في معرض الكلام عن العموميات اللغويّة نظرية النحو التحويلي لنعوم تشومسكي. نظرية تشومسكي أشهر من أن نغامر بتبسيطها في هذا المقام، ومن أركانها أنّ كل طفل طبيعي يولد وفي عقله جهاز لاكتساب اللغة language acquisition device، وكلّ ما يحدث من البيئة والتربية والثقافة هو تنشيط ذلك الجهاز. لا يكتسب الطفل اللغة بتقليد المحيطين به، بل يستنتج قوانين اللغة من خلال المحاولة والخطأ. جاءت النظريّة لتعيد النّظر في المفاهيم السلوكيّة behaviorist التي ترى اللغة محض تقليد واستجابات متوقّعة للمثيرات، بلا إبداع ولا مفاجآت.

ومن أركان نظريّة تشومسكي كذلك أنّ اللغة البشرية مؤهلة لإنتاج ما لا حصر له من تراكيب وأبنية من عدد من العناصر من خلال قوانين تحكم تنظيمها وتحويلها. من هنا كان وصفها النظريّة التوليديّة التحويليّة generative transformational. تتفق اللغات البشرية في بنياتها العميقة deep structures لكنّها قد تختلف في بنياتها السطحيّة الظاهرة surface structures. على سبيل المثل، كلّ لغات العالم فيها فعل وفاعل ومفعول، مبتدأ وخبر، موضوع ومحمول، مسند إليه ومسند، على أنّ ترتيب وجود هذه العناصر في الجملة يختلف من لغة إلى لغة ومن سياق إلى سياق. من اليسير أن نرى أنّ البنية العميقة في المثلين العربي والإنجليزي واحدة وإن اختلفت طرائق التعبير عنها:

- ضَربَ عمرو زيدًا.
- زيدًا ضربَ عمرو.
- ضُربَ زيدٌ.
- زيدٌ ضربه عمرو.

- *John killed Mary.*
- *Mary was killed by John.*
- *It was John who killed Mary.*
- *Mary was killed.*

تأسيسا على ما سبق، لعلّنا نستنتج أنّ التراكيب الخبريّة المباشرة البسيطة المعياريّة - أي التي لا تشذّ عن المألوف، فلا يكون فيها تقديم وتأخير أو غموض نحوي أو إشارة هائمة لا تستقرّ على مشار إليه أو ضمائر عالقة تبحث عن مضمراتها - تسهُل ترجمتها بين لغتين لمن يعرفهما، بل تسهل ترجمتها على برامج الترجمة الآلية التي كانت من ثمرات التطوّرات التقنية. لن يجد مترجم يعرف الإنجليزية والعربية صعوبة في نقل جملة "ذهب الولد إلى المدرسة" إلى الإنجليزية.

لن يجد جوجل صعوبة في ترجمة هذه الجملة الخبريّة البسيطة إلى *"The kid went to school"*، لكنّه سوف يجد صعوبة بالغة في ترجمة قولهم "رأيت النّاس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب"، لما في كلمة "ذهب" من تورية لا تخفي على عارف بالعربية. هكذا يترجم جوجل الجملة الأخيرة، ترجمة لا هي أمينة ولا هي بليغة:

I've seen people have gone from him, went to the"."

يصدق هذا الاستنتاج على المفردات العابرة للثقافات فلا تكون صعوبة في وجه من يعرف اللغتين إلّا في المفردات التي تختصّ بها ثقافة دون غيرها فيما يتصل بطرائق تفكير أفراد الجماعات والمجتمعات وسلوكهم ومعتقداتهم – ملابسهم وأعيادهم وشعائرهم وأطعمتهم - والمفردات التي تستحدثها ثقافة دون غيرها لتشير بها إلى اكتشاف أو اختراع جديد ومن ذلك "التليفزيون" و"التليفون" و"الموبايل" و"الكمبيوتر" و"الفاكس" و"الفيسبوك"، و"تويتر" و"الأتوموبيل" و"المكياج" و"الكولاج" و"الراديو" و"الفيلم" والكاميرا"، و"السيلفي" على سبيل التمثيل لا الحصر. من يترجم هذه المفردات إلى العربية له خيارات النقل الحرفي أو الترجمة الحرفية أو التطويع أو البحث عن مقابل مناظر في العربيّة، ولكلّ منها مقابل: "الإذاعة المرئية" و"الهاتف" و"الهاتف المحمول" و"جهاز الحاسوب" و"الناسوخ" و"كتاب الوجوه" و"واحة المغرّدين" و"السيّارة" و"التجميل" و"اللصق" و"الإذاعة المسموعة" و"اللقطات المصوّرة" و"آلة التصوير"، و"التصويرة" على الترتيب، لكنّ الكلمات المعرّبة تظلّ اكثر شهرة واستعمالًا من نظيراتها العربيّة.

شكل (7) معاني الترجمة

الوعي/ الإدراك:

الوعي من "وعى"، والإدراك من "درك". في (لسان العرب): "الوَعْيُ: حِفْظ القلبِ الشيءَ. وعَى الشيء والحديث يَعِيه وَعْياً وأَوْعاه: حَفِظَه وفَهِمَه وقَبِلَه، فهو واعٍ، وفلان أَوْعَى من فلان أَي أَحْفَظُ وأَفْهَمُ. ... الوَعِيُّ الحافِظُ الكَيِّسُ الفَقِيه. ... ووَعى الشيء في الوعاء وأَوْعاه: جَمَعَه فيه". الدَّرَكُ: "اللحَاق" و"الوصول إلى الشيء" "يقال: مشيت حتى أَدْرَكته وعِشْتُ حتى أَدْرَكْتُ زمانه. وأَدْرَكْتُه ببصري أَي رأَيته وأَدْرَكَ الغلامُ وأَدْرَكَ الثمرُ أَي بلغ" "واستَدْرَكْت ما فات وتداركته".

في هذا السياق يتّصل الإدراك والوعي بالتفكير thinking والفكر thought ويشيران إليهما - من العمليات الحسابيّة إلى حلّ المسائل، إلى تفسير العقل المُدخلات الحسيّة التي تصله، إلى توجيه حركات أعضاء الجسد وأفعاله، إلى تقمّص حالات الآخرين والتعاطف معهم. يشبه العقل البشري في ذلك جهاز كمبيوتر في معالجته المُدخلات، وفي

عملياته الحسابية، وفي الأوامر والاستجابات، مع فارق جوهريّ مهمّ هو فارق الإحساس والشعور، ثم فارق الإرادة (https://www.psychologytoday.com/basics/cognition).

تأسيسا على تصوّرات ڤان ديك Dijk (2014) يشتمل الوعي والإدراك هذه العناصر والمفاهيم والعمليات:

– العقل حيث تنشأ اللغة وحيث تستقر، وهو سببها وثمرتها. هو المخّ وهو "الرأس وما وعى" في الحديث النبوي الشريف، وهو من "عقل" أي قيّد وحكم. وهو "الحِجْر والنُّهى ضِدُّ الحُمْق" (لسان العرب).

– يتّصل بذلك القلب والرّوح والنفس. القلب حين يجاوز حقيقته الجسمانيّة التشريحية يصبح وعاء المعرفة، المُدرِك، والمُخاطَب بالتكليفات الإلهيّة. وهو يرتبط في ذهن عامّة النّاس بالوجدان والشعور. وتتبادل النّفس والروح المواقع في كثير من الأحوال. قد ترادف الرّوح المعنى الثاني للقلب، وقد تشير إلى ما يسري في جميع البدن كما يسري النّور في بيت أو بناء. أمّا النفس فهي جماع الغضب والشهوة، تكون "مطمئنة"، وتكون "أمّارة"، وتكون "لوّامة" (إحياء علوم الدّين)، فيما يشبه قسمة العقل والوعي عند سيجموند فرويد إلى "أنا" ego متوازنة منضبطة، و"هو" id تحرّض على الخضوع للرغبات المكبوتة، و"أنا عليا" super ego هي الضمير والدين والأخلاق العامّة وما إليها.

– الذاكرة: هي قوّة الحفظ والاحتفاظ بالذكريات، عن الأماكن والأشخاص والأحداث والتواريخ والأرقام، وغير ذلك، قد تكون قريبة short-term حديثة العهد، وقد تكون بعيدة long-term يوشك أن يطويها النسيان.

– الذكريات الدلاليّة: تحتفظ الذاكرة بمعارف ومعلومات لا تتأسس على خبرات وتجارب شخصيّة، بل هي معارف ومعلومات عامّة يتقاسمها أهل ثقافة أو بيئة، ومنها ما يتقاسمه البشر جميعا - عن الألوان، وأسماء البلدان، وأصوات اللغة ورموزها، والعملات وما إلى ذلك.

– ومن عناصر الوعي كذلك النماذج والأطر التي ننشأ عليها ونكتسبها، وهي المخططات التي ننشأ على اتّباعها في المواقف المختلفة، والغايات والأهداف، وسائر المعارف والمعتقدات، والمواقف والتوجّهات، والعمليات المعرفيّة أو طرائق التفكير ومعالجة المعلومات واستيعاب الأمور.

وينبغي لنا أن نتذكّر أنّ الإدراك يبدأ من الحواس، من السمع والبصر واللمس والتذوّق والشمّ. في القرآن الكريم: "لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ" (سورة الحاقّة: 12). ولا غرابة، فمن أساء سمعًا، أساء فهمًا، وأساء إجابة. هنا موضع التباس بين كلمتي cognition و perception حسْمُه في أنّ الأولى أكثر شمولا وتجريدا من الثانية، أمّا الثانية فترتبط بإدراك المحسوسات بالحواسّ الخمسة.

في الوعي تتحوّل البيانات والمعلومات والمُدخلات إلى مفاهيم وأفكار ومواقف وتوجّهات. من مرادفات الوعي awareness و consciousness وكلتاهما تشير إلى حالة مؤقّتة من الإدراك والوعي بما يحيط بالإنسان من مؤثّرات ومثيرات. تشير الكلمتان كذلك إلى الفهم والمعرفة في مجال من المجالات أو موضوع من الموضوعات. من ذلك الوعي البيئي والوعي السياسي والوعي الاجتماعي، ويكون رفع مستوى الوعي هنا مرهونًا بتحسين مستوى المعرفة فيه. إذًا، الوعي يبدأ من الإدراك لكنّه لا ينتهي عنده، فهو اكتساب المعرفة والمفاهيم من خلال العمليات

الذهنية والتجربة أو الخبرة والإحساس. ومن معاني الوعي المعرفة التي تثمر فعلًا أو سلوكًا. ومن الوعي ما يكون زائفًا كاذبًا، إذا تأسس على معلومات خاطئة، ومنه ما يكون منقوصا متحيّزًا، إذا تأسس على إدراك جزئي محدود.

من حقائق اللّغة أنّ الوعي أو الإدراك يتوسّط بينها - أي اللغة - وبين العالم. آية ذلك ما حكى الأصبهاني في (الدرّة الفاخرة)، قال" جاء رجل لبعض الملوك فقال: جعل الله جرأتك جرأة ذبابة، وقوّتك قوّة نملة، وكيدك كيدَ امرأة، فغضب الملك من قوله، فقال له: على رِسلِك أيّها الملك، إنّه يَبلُغُ من جَرأةِ الذُباب أنْ يقعَ على أَنفِ المَلِك، ويَبلُغُ من قوّةِ النَّملة أنّها تحملُ أضعافَ وزنِها، والفيلُ لا يستقلّ بذلك، ويَبلُغُ من كيدِ المرأة أنَّها تغلِبُ دهاةَ الرِّجَال" (ص 62).

وقد ذهب بيتُ شعر لعليّ بن الجهم يخاطب فيه الخليفة المتوكّل قائلًا:

أنتَ كالكلبِ في حِفظِكَ الودّ وكالتّيسِ في قِراعِ الخطوبِ

مثلا لِمَا ظاهره ذمّ وباطنه مدح، ومثلًا للعلاقةِ التي لا تنفصم بين اللغة وبيئتها. لمفردة الكلب معنى حقيقي ومعان مجازيّة شتّى في المعجم وفي الواقع. ما الذي يعيّن دلالته في سياق من السياقات؟ ما الذي يحسم اختيار دلالة من دلالاته – "وفيّ" أو "أليف"، أو "قذر"، أو "دنيء"، أو "مسعور"، أو غير ذلك؟

إنّه السياق أو المقام، من سياق اللغة والمفردات التي تُحيط بالمفردة المقصودة، والموقف الذي تستعمل فيه، والثقافة التي ترد فيها، فلا يحسن في ثقافتنا المصريّة – مثلًا - أن تمتدح حذر أحدهم فتقول له "أنت حذر كالغراب"، لأنّ الغراب يرتبط في هذه الثقافة بالشؤم والموت والخراب. يتشكّل وعي السامع من ذكرياته وخبراته وتجاربه – ما رأى وما سمع وما قرأ وما خبر أو جرّب - وأسلوب تفكيره ومعتقداته. في الجملة "كل حرباء إذا أكره صلّ" قد يجد السامع أو القارئ نفسه مضطرا إلى إعادة النّظر في ثوابته الثقافيّة واللغوية، فيلجأ إلى معنى مهجور لا يخطر بباله كثيرًا، وقد لا تكون له ألفة به، هو "الحرباء تعني المسمار". ما دام هذا المعنى بعيدا عن وعي المتلقّي، فسوف يظلّ الالتباس أو سوء التفسير.

سياق	كلّ **حرباء** إذا أُكره صَلّ
الجملة	الكلمة يتبعها ويتعلّق بها فعلان يناسبان مسندًا إليه مذكّرًا "أكره" و"صلّ"
الموقف	مثلًا: صديق يشكو لصديقه كثرة الضغوط في عمله وقلّة صبره واحتماله.
الثقافة	في الثقافة المصريّة الحرباء امرأة شريرة أو شخص متلوّن

وإذا كنّا قد تنبّهنا إلى أنّ الوعي – ومن مرادفاته الفِكر - يتوسّط بين اللغة والعالم الذي يحيط بها، فلا بدّ من أن نتنبّه كذلك إلى أنّ العلاقة بين اللغة والوعي والثقافة – أو العالم الذي يحيط بهما - بالغة التعقيد، فاللغة تعبّر عن الثقافة وتتشكّل بها، والثقافة تنتقل باللغة، وتتشكّل بها.

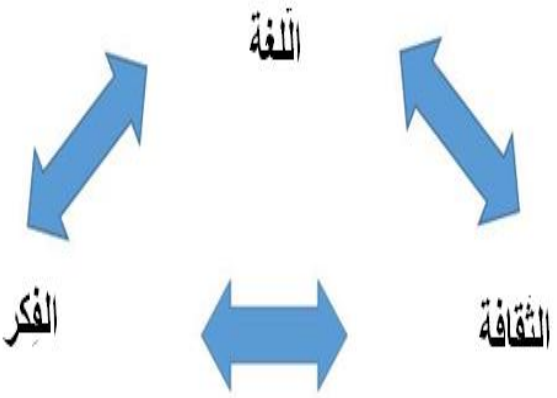

شكل (8): اللغة والفكر والثقافة - علاقات متبادلة

تتباين الثقافات البشريّة - على الرّغم من وحدة منشأها - لما تقدّم من أسباب، منها اختلاف الجغرافيا والمناخ، واختلاف مجالات النشاط والعمل، واختلاف أنواع الكائنات غير البشريّة التي يتفاعل معها البشر، وغير ذلك من أسباب. هي طبيعة بشريّة واحدة، من أصل واحدة، تتفرّع - لكلّ هذه الأسباب - إلى جماعات وأعراق ومجتمعات وثقافات، ولغات ولهجات، ثمّ تتفرّع إلى أفراد وشخصيّات ولكنات.

كلّ البشر يبحثون عن السعادة والمتعة، ويحسنون التخفّي، ويكذبون ويحتالون، ويضعون التشريعات والقواعد والتنظيمات، ويطلبون المعرفة، ويضحكون ويبكون، ويحكون القصص، ويتبادلون النميمة، ويألمون ويتألّمون، ويرتحلون ويجتمعون ويفترقون، ويبحثون عن عوالم مثاليّة ومتنفّسات. لكنّ أهل كلّ جماعة أو مجتمع يفعلون كلّ ما سبق بطرائقهم الخاصّة التي تختلف بدرجات متفاوتة عن طرائق غيرهم من الجماعات والمجتمعات. وفي كلّ جماعة أو مجتمع وثقافة تكون تباينات واختلافات على مستويات أدنى، إلى أن يصل التباين إلى الأفراد.

أكثر الدراسات التي تتناول هذه التباينات بين الثقافات تقسم العالم إلى غرب وشرق، إلى ثقافة أحفاد أرسطو، وثقافة أحفاد كونفوشيوس، إلى ثقافة فرديّة استقلاليّة individualistic، وثقافة جماعيّة شموليّة collectivist. من هذه التباينات فيما يتّصل بالوعي والإدراك:

– **طرائق الإدراك**، ومن ذلك ميل الثقافات الفرديّة إلى إدراك الأشياء منفصلة، مستقلّة عن سياقاتها context-independent، وميل الثقافات الجمعيّة/ الجماعية إلى إدراكها مجتمعة، متّصلة بسياقاتها ومستندة إليها context-dependent.

– **آليات الوعي**، ومن ذلك ميل بعض البشر – في ثقافات السماع - إلى تصديق ما يسمعون، وما يُروى عليهم من حكايات، بعضها إشاعات، وميل غيرهم – في ثقافات المنطق الوضعي - إلى تصديق ما يبصرون Seeing is believing. مع السماع لا يكون في غالب الأحوال تثبّت أو تحقُّق، بل تسليم بما يُقال.

– **طرائق تأطير المعارف وتنظيمها واستدعائها**، ومن ذلك نزوع أهل الثقافات الفرديّة إلى تذكّر الأشياء التي تتصل بالذات، ونزوع أهل الثقافات الجماعيّة إلى تذكّر الأشياء التي تربطهم بالآخرين.

– **المعاني التي تنتجها بالعلامات**، ومن ذلك نزوع الثقافات الفرديّة الوضعيّة إلى الاهتمام بالمحتوى، ونزوع الثقافات الجماعيّة إلى التركيز على شكل العلامات، لا على محتواها. ومن ذلك نزوع ثقافة إلى تفسيرات موضوعية، تنفصل فيها حقائق العالم عن المشاعر الشخصيّة، ونزوع ثقافة غيرها إلى تفسيرات ذاتيّة فيها "شخصنة". ومن ذلك اختلاف دلالات العلامات – الألوان والإشارات والأصوات والروائح، وغير ذلك - من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان.

– **كيف يرى البشر الأشياء والكائنات** من حولهم؟ كيف يرون الحيوانات والطيور والنباتات؟ وكيف يرون الظواهر الطبيعية والتضاريس والجهات

والمواقع؟ ليس كل ما يُؤكل، أو يُستأنس، ويُخشى وينفر النّاس منه بين الكائنات في ثقافة يؤكل، أو يُستأنس، ويُخشى وينفر النّاس بالضرورة منه في غيرها من الثقافات، تتشكّل تعابير البشر في تسمية هذه الكائنات والموجودات وفي وصفها والكلام عنها والرموز التي يشيرون بها إليها بالطرائق التي يرونها بها، وبمرور الزمن تصير تلك التعابير حدودًا و أُطُرًا – وقد تصير قيودًا – على رؤية البشر تلك الكائنات والموجودات، فترتبط البومة – مثلا – بالشؤم والخراب في ثقافة، وبالحكمة والبصيرة في ثقافة غيرها.

– **لغاتها ولهجاتها ولكناتها**، وهذه تباينات ظاهرة قد لا تستعصي على الإدراك، خصوصًا مع القُربي الجغرافيّة والتاريخيّة، والتفاعلات التجارية والاجتماعيّة بين أهل اللغات المختلفة، لكن من الضروري التذكير بأنّ العلاقة بين اللغة والثقافة علاقة تبادليّة معقّدة، فالبشر - كما ورد فيما سبق - ينتجون ثقافاتهم باللغة، ثمّ تتشكّل لغاتهم بتلك الثقافات. ومن الضروري الإشارة إلى تنوّع اللغات واللهجات واللكنات في الثقافة الواحدة وفي البلد الواحد.

– **المعايير والأعراف والقيم** وغايات أهلها التواصليّة والبلاغيّة في المواقف المختلفة. ومن ذلك النزوع إلى فرض الرأي، في مقابل النزوع إلى التفاوض والأخذ والردّ، والنزوع إلى الاستنباط في مقابل الاستقراء، والاستناد إلى البيانات والمعلومات في مقابل الاستناد إلى الروايات والنّصوص، ومن ذلك حظّ كلّ ثقافة من النزوع إلى التعميم والتنميط، وكذلك سلطة "الكفاءة" في مقابل سلطة "السنّ" و"الأقدميّة" أو المال والشهرة، والنّظر في الأمور من داخلها emic في مقابل النّظر إليها من خارجها etic.

– تتباين الثقافات كذلك في إدراكها ووعيها بما يدخل **في نطاق العامّ وما يدخل في نطاق الخاصّ**. من عواقب ذلك أنّ بعض الثقافات لا يجد أهلها حرجًا في انتهاك خصوصيّات الآخرين والتلصص عليها، وتنهار في وعيهم الحدود بين العامّ والخاصّ. على طرف نقيض، تضع بعض الثقافات حدودًا فاصلة حاسمة بين العامّ والخاصّ. يتجلّى ذلك في اللغة، وفي الحوارات اليوميّة، وفي مقدار الحرج الذي يحيط بالأسئلة عن الديانة، والحالة الاجتماعيّة، والحمل والإنجاب، والحالة الصحيّة، والسنّ، والراتب الشهري، وعن أفراد الأسرة خصوصًا الزوجة والبنات. ويتجلّى ذلك أيضًا في مقدار ما يقع من انتهاك حقوق الآخرين الفكريّة، وفي الاعتداء على ممتلكاتهم.

– **الوعي بالذات**. يصدق عليه كثير مما سبق، ففي الثقافات الفرديّة الاستقلالية، يميل البشر إلى رؤية ذواتهم منفصلة عن غيرهم، مستقلّة عمن سواهم، أمّا في الثقافات الجمعيّة الجماعيّة فلا يرى البشر أنفسهم إلّا في صلاتهم وعلاقاتهم بالآخرين. ويكثر في الثقافات الجماعية تعريف أحدهم أو إحداهن بنسبته أو نسبتها إلى أب أو زوج أو عمّ أو خال.

الثقافة من جديد:

عرّجت الدراسة على معاني الثقافة، وعلاقتها باللغة والوعي، وبعض مبرّرات تباين الثقافات البشريّة، وبعض تجليات تلك التباينات. واستطرادًا على ما سبق وتبيانًا لبعض ما فيه، تتكوّن الثقافة من عناصر ثلاثة: **عنصر فكري، وعنصر تقني أو أداتي، وعنصر تنظيمي** (شكل 8). على المستوى الفكري، تتباين الثقافات - كما تقدّم - في طرائق تفكير أهلها، وقيمهم ومعتقداتهم، وفي طرائق

استدلالهم. وعلى المستوى التقني الأداتي، تتباين الثقافات في حظوظها من التقنية، ووفرة الآلات والأدوات، ومهارات أهلها، وطرائق أدائهم أعمالهم، وممارستهم نشاطاتهم. وعلى المستوى التنظيمي، تتباين الثقافات في تنظيماتها الأسريّة والمهنيّة، وأنظمة الحكم والحوكمة، وشبكات العلاقات التي تتشكّل منها، وتقوم عليها.

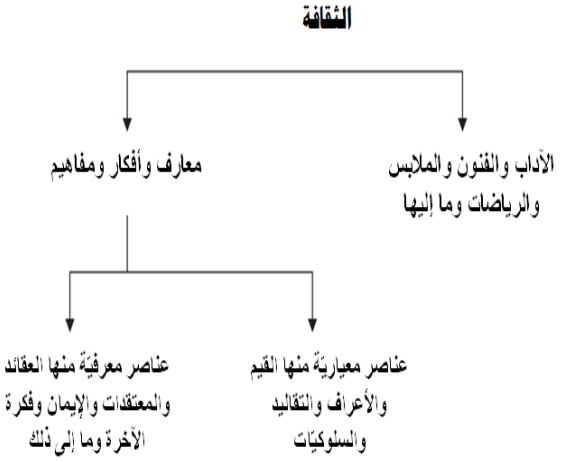

شكل (9): عناصر الثقافة

https://professionalshiksha.blogspot.com/2018/10/cultural-in-consumer-behaviour.html

وقد وردت إشارة إلى اختزال الثقافة في طرائق تفكير البشر، وطرائق اعتقادهم وسلوكيّاتهم وأساليب حياتهم (جودارد Goddard، 2005). تتنوّع الثقافات في المجتمع والجماعة الواحدة وتكون في كل مجتمع ثقافة سائدة وثقافات هامشيّة – وتسود ثقافة ما على أساس لون أصحابها، أو لهجتهم، أو ديانتهم، أو طبقتهم الاجتماعية، أو مواردهم الاقتصاديّة، أو انتماءاتهم السياسيّة. في الولايات المتحدة الأمريكية ظلّت الثقافة السائدة هي ثقافة من يعرفون بالاختصار WASP – white, Anglo-Saxon, Protestant – أي ثقافة البيض البروتستانت الذين ينحدرون من أصول بريطانيّة. على هوامش الثقافة السائدة dominant تتعدّد الثقافات الصغري التي تتباين علاقاتها بالثقافة السائدة من خضوع، إلى اختزال إلى تمرّد، ومن ذلك في الولايات المتّحدة الأمريكيون السّود، والأمريكيون الآسيويون، والأمريكيون الأسبان.

تفرض الثقافة الرائجة السائدة لغتها، وأنماط سلوكها، وآدابها وفنونها، وقيمها وتقاليدها لتكون المعايير التي يُحتكم إليها، وتفرض طرائق وعيها وتفكيرها لتكون الأصل الذي تُقاس إليه الصور والنسخ المختلفة. وهي تفعل ذلك بتوظيف الإعلام والتعليم والأدب الرسمي والمؤسسات الثقافيّة. في الدول التي وقعت تحت الاحتلال – الذي يسمّونه من باب التجميل والتجمّل "الاستعمار" – تزداد الأمور تعقيدًا، فتكون هناك ثقافة المُستعمِر بكسر الميم الثانية وثقافة المُستعمَر بفتحها. تصبح ثقافة المُستعمِر المعيار والمتن، وكلّ ما حولها هوامش peripheries.

لا حدود لتعقيدات العلاقات الثقافيّة اليوم، فكثير من البلدان فيها مواطنون مقيمون ووافدون، أهل البلد وأصحابها، والمهاجرون أو الأجانب. ولا يكون الوافد الأجنبي بالضرورة الطرف الأضعف في التفاعلات الثقافيّة، فالوافدون من الغرب والشمال في غالب الأحول هم الأقوى في علاقاتهم بالشرق والجنوب – حتّى بعد انتهاء حقب الاستعمار والاحتلال العسكري. مزيد من التعقيدات تثمرها اختلافات الديانة والجنس والمهنة. هذه التعقيدات وغيرها - كما تتجلّى في النصوص الأدبية والإعلامية - هي مدار انشغال الدراسات الثقافيّة.

الدراسات الثقافيّة:

What I say is this, and this I do not say to all Englishmen. God made us different, you and I, and your fathers and my fathers. For one thing, we have not the same notions of honesty and

speaking the truth. That is not our fault, because we are made so. And look now what you do? You come and judge us by your own standards of morality. You are, of course, too hard on us. And again I tell you you are great fools in this matter. Who are we to have your morals, or you to have ours? (Rudyard Kipling, East and West, in Schmidt, 2007, p. 18)

هذا ما أريد أن أقول - ليس لكلّ أهل انجلترا بالطبع: لقد خلقنا الله مختلفين، أنا وأنت، آبائي وآباءك. نحن نختلف، على سبيل المثل، في فهمنا فكرة الأمانة وقول الحقيقة. ليس هذا خطأي ولا هو خطؤك، بل هكذا خلقنا. لكن انظر ماذا تفعلون بنا؟ تريدون أن تحاكمونا بمعاييركم ومقاييسكم الأخلاقيّة، وتفعلون ذلك لا ريب بكل قسوة وعنت. مرّة أخرى أقول لك إنّكم حمقى إذ تفعلون ذلك. من أنتم لتكون لكم أخلاقنا؟ ومن نحن لتكون لنا أخلاقكم؟ (روديارد كيبلنج: الشرق والغرب)

تتأسّس الدراسات الثقافية cultural studies على اليقين أنّ في كلّ جماعة أو مجتمع ثقافة مهيمنة، وثقافات خاضعة تابعة. تلك الثقافة السائدة هي التي تقرّر ما ينبغي وما لا ينبغي، وتضع معايير التذوّق والحكم على الأشياء، وهي التي ترسّخ القيم والتقاليد. مدار انشغال أهل الدراسات الثقافيّة هو تلك الثقافات المُهمَّشة الخاضعة التابعة، وطرائق مقاومتها الثقافة المهيمنة، أو تكيّفها معها، أو اختزالها فيها.

وقد شهد الربع الأخير من القرن الماضي تحوّلا ثقافيّا في أكثر الحقول المعرفية الإنسانيّة والاجتماعيّة. في دراسة الأدب، ومن منطلق هذا الانشغال بالثقافة، ترفض الدراسات الثقافية فكرة روائع الأدب *masterpieces*، وترفض الفصل بين الأدب الرسمي "الراقي" والأدب الشعبي، فكلّ مُنتَج ثقافي جديرٌ بالاهتمام والدراسة. وقد سنحت مع تطوّر الدراسات الثقافيّة فرص شتّى لدراسة الأدب الشعبي/ الشفهي – ومنه السير الشعريّة، والشّعر غير الفصيح، والموروث الأدبي المحلّي الذي نبّه إلى أهميّته من قبل ابن خلدون في تاريخه.

من أسئلة الدراسات الثقافية ومصطلحاتها:

- تمثيل الهامشي/ الثانوي/ التابع *subaltern* في الخطاب السائد *dominant discourse*، وكذا تمثيل الآخر *other* المختلف. وكيف يظهر التجميل والتقبيح في الخطاب الذي تلتقي فيه ثقافتان، تجميل أنا ونحن، وتقبيح الآخر، تضخيم فضائل الأنا ورذائل الآخر، وتقزيم رذائل الأنا وفضائل الآخر. وقد يصل الأمر إلى حدّ تحسين القبيح وتقبيح الحسن.

- الاستشراق *orientalism* أي الشرق بعيون أهل الغرب، وقد يبالغ المستشرقون فلا يرون في الشرق إلّا قلّة العقلانيّة وقلّة الرشاد، والاستغراب *occidentalism* أي الغرب بعيون أهل الشرق، وقد يبالغ المستغربون فلا يرون في الغرب إلّا الانحلال والمجون.

- التهجين *hybridization* وهو ذلك الفضاء الثالث، وتلك الهويّات المهجّنة التي تنشأ من التقاء ثقافتين. فضاء قلق غير مستقرّ، وهويّات عالقة تعيش في توتّر.

- الاستحواذ والتطويع الثقافي *cultural appropriation* وهو استلاب عناصر ثقافة على يد أهل ثقافة أخرى، ومن ذلك تحويل متحف إلى مسجد، أو مسجد إلى كنيسة، أو كنيسة إلى مسجد.

- الهيمنة *hegemony* التي تمارسها ثقافة سائدة على ثقافات تابعة هامشيّة. لا تكون هيمنة من غير أسباب قوّة power وسيطرة *control*، قد تكون أسبابًا اقتصاديّة أو سياسيّة أو جغرافيّة أو تاريخيّة أو لغويّة إعلاميّة.

- التمركز العرقي أو التمحور حول العرق *ethnocentricism* الذي يرى في سلوكيّات عرق من الأعراق المعيار والمقياس الذي تقاس إليه سلوكيّات غيره من الأعراق. وهذا ديدن نظريات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة التي نشأت في الغرب، فهي ترى في الغرب المعيار والمقياس الذي تقاس عليه كلّ ممارسات الثقافات الأخرى.

نصّ وترجمة:

سوجاتا بات Sujata Bhatt (1956-)

شاعرة ومترجمة من أصول هندية لغتها الأم هي لغة الجوجارتي الهندية. هاجرت إلى الولايات المتّحدة عام 1968 ودرست في جامعة أيوا وحصلت على منحة في الكتابة الإبداعية من جامعة فيكتوريا في كندا. نالت عددا من الجوائز عن شعرها. تعيش الآن في ألمانيا حيث تقوم بتدريس مقررات الكتابة الإبداعيّة. ترجمت عن الألمانية والجوجارتية إلى الإنجليزية. يتصف شعرها بالبساطة والنزعة السرديّة الحواريّة. وظل سؤال الازدواجية اللغوية والحفاظ على اللغة الأم عند التعرّض إلى لغة جديدة عالمية يشغلها طويلا.

Search for My Tongue

Sujata Bhatt

You ask me what I mean
by saying I have lost my tongue.

I ask you, what you would do
if you had two tongues
in your mouth,
and lost the first one -
the mother tongue -
and could not really know the other -
the foreign tongue.

You could not use them both together
even if you thought that way.
And if you lived in a place you had to
speak a foreign tongue,
your mother tongue would rot,
rot and die in your mouth
until you had to spit it out.

I thought I spit it out
but overnight while I dream,
it grows back,
a stump of a shoot
grows longer, grows moist,
grows strong veins,
it ties the other tongue in knots,
the bud opens,
the bud opens in my mouth,
it pushes the other tongue aside.

Every time I think I've forgotten,
I think I've lost the mother tongue,
it blossoms out of my mouth.

أبحث عن لغتي

تسألُني ماذا أعنى
حين أقولُ فقدتُ لساني
وأنا أسألُ ماذا تفعلُ
لا باللغةِ، ولكن باللغتين؟

حين تضيعُ اللغةُ الأولى
وتظلّ الأخرى شطّا أبعدَ
من رأى العينين؟

فكّر حينَ تريدُ بلغةٍ، أو لغتين،
لكن كيفَ تكلّمُ حين تكلّمُ بلسانين؟

حين تعيش غريباً
تتحدّثُ لغةً أخرى رغماً عنك،
تضيع اللغةُ الأولى،
تهتُ، تفسدُ، يبصقُها فمك،
تسقطُ من بين الشفتين.

كنت أظنّ بأني قد فارقت لساني
حين هجرت اللغة الأولى،
إلا أنّي حين أنامُ يعود الحلمُ
تعود الشجرة تنمو،
تمتد فروعٌ من فرعٍ يقوى:
تكبر، تندى،
تسرى فيها أوردة
تتدفّق، فتكبّل تلك اللغة الأخرى.

ينفتح البرعم بين الشفتين
فيزيح لساناً غريباً
بل يقصيه بعيدا.

و حين أظنُّ نسيت لساني،
ضاعت لغتي الأم،
يعود لينمو، يزهرُ
في شفتيَّ جديدا.

قائمة المصادر والمراجع:

(أ) العربيّة:

حمزة بن الحسن **الأصبهاني**: (**الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة**)، ج 1-2 . تحقيق عبد المجيد قطامش. القاهرة: دار المعارف، 1972.

السعيد **بدوي**: (**مستويات العربية المعاصرة في مصر: بحث في علاقة اللغة بالحضارة**). القاهرة: دار المعارف، 1973.

جميل حمداوي: (**الأدب الرقمي بين النظرية والتطبيق**). 2016 http://www.almothaqaf.com/library/88.pdf.

عبد الرحمن بن محمد **بن خلدون**: (**تاريخ ابن خلدون**) تحقيق: أبو صهيب الكرمي. عمّان، الأردن: بيت الأفكار الدولية، دون تاريخ.

سمير **خليل**: (**دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي**). بيروت: دار الكتب العلميّة، 2016.

مصطفى صادق **الرافعي**: (**تاريخ آداب العرب**)، ج 1. المنصورة: مكتبة الإيمان، 1911.

جرجي **زيدان**: (**اللغة كائن حيّ**)، ط 2. بيروت: دار الجيل، 1988.

أبو الفتح عثمان **بن جني**: (**الخصائص**)، ج1. تحقيق محمد علي النّجار. القاهرة: دار الكتب المصريّة، 1986.

رزوق **عيسى**: منافع تدوين اللغات واللغيّات واللثغات. (**لغة العرب**)، ع 1، يوليو 1911.

محمد مصطفى **المراغي**: (**بحث في ترجمة القرآن الكريم وأحكامها**)، تحقيق صلاح الدين المنجد. بيروت: دار الكتاب الجديد، 1936.

حسين **مؤنس**: (**الحضارة**). سلسلة عالم المعرفة، ع 237. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998.

(ب) الأجنبيّة:

Bernstein, Basil (1971). Class, Codes and Control: Theoretical Studies Towards a Sociology of Language. London: Routledge and Kegan Paul.

Carroll, John B. (ed.). (1956). Language, Thought and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf. Cambridge: Cambridge University Press.

Chapman, S. & Routledge, C. (ed.) (2009). Key Ideas in Linguistics and the Philosophy of Language. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Dubois, Jean et al. (1999). Dictionnaire de Linguistique et des Sciences du langage, Paris, Larousse.

Goddard, Cliff (2005). The lexical semantics of culture. Language Sciences, 27: 61-73.

Kaplan, Robert B. (1966). Cultural thought patterns in intercultural education. Language Learning 16(1-2): 1-20.

Kastanakis, M. & Voyer, Benjamin G. (2014) The effect of culture on perception and cognition: a conceptual framework. Journal of Business Research, 67 (4). pp. 425-433.

Lewis, Bernard, (2004). From Babel to Dragomans: Interpreting the Middle East. Oxford: Oxford University Press.

Oyserman, Daphna (2017). Culture three ways: Culture and subcultures within countries. Annual Review of Psychology, 68: 15-29.

Plato (2005). Phaedrus. In The Dialogues of Plato (B. Jowett, Trans.). Oxford: Clarendon, 1892. Excerpted in H. Adams and L. Searle (eds.). Critical Theory since Plato, 3rd edn. Belmont, CA: Thomson Wadsworth, pp. 36–38.

Sapir, Edward (1929). The status of linguistics as a science. Language 5:207-214.

Schmidt, Patrick (2007). In Search of Intercultural Understanding. Montreal: Meridian World Press.

van Dijk, T. A. (2014). Discourse and Knowledge. Cambridge: Cambridge University Press.